



Plotting Spatial Identity in *The Baghdad Clock*

Fatemeh Akbarizadeh¹

Abstract

The study of place and environmental settings within human societies extends beyond mere topographical or geographical inquiry. Place can also be explored through cultural and intellectual lenses, particularly within the framework of literary criticism. As a socio-literary form, the novel not only recounts events but, in line with the theoretical perspectives of Paul Ricoeur and Hayden White, engages in *emplacement*—the process of transforming disparate facts into a coherent narrative structure. This entails weaving together spatial environments and their associated events, vividly rendering their features so that they resonate alongside the characters, embodying life in its diversity, strengthening and enriching identity, and serving as a non-historical record of human experience. Shahad al-Rawi's *The Baghdad Clock*, one of the most prominent contemporary Iraqi novels, portrays the socio-cultural realities of Iraqi society within the context of war. The narrative situates Baghdad and its diverse locales at the center of events, allowing the city itself to shape the plot's architecture. In doing so, the novel constructs a multi-dimensional representation of Baghdad as a site of intellectual, civilizational, and cultural identity for its people. This study employs a descriptive-analytical approach to examine the semantic and symbolic dimensions of place in *The Baghdad Clock*. It argues that the novel undertakes a form of historical emplacement by fusing reality with imagination to articulate the evolving identity of Iraqi society—particularly that of Baghdad—across temporal boundaries, from past to future. Through lived experience, the text conveys that the identity of place is inseparable from the identity of the individual. In the narrative, Baghdad emerges as an imaginative and vibrant space where locations become potent symbols of collective memory and belonging, actively contributing to character development and the formation of collective consciousness. The novel blends the real and the imagined to construct a resistant literary image of Baghdad and its locales, crafting a narrative identity rooted in pain, nostalgia, and hope. Locations—from the neighborhood to the Ma'mun Tower, from the grandmother's house to Al-Zawraa Park and the Baghdad Clock—are reframed through the narrator's personal memory, transforming into vessels of cultural, historical, and emotional significance that encapsulate the depth of the inhabitants' collective experience.

Keywords: Identity, Novel, Arabic Narratology, Place, *The Baghdad Clock*

Received: 30/10/2024

Accepted: 21/05/2025

Winter (2025) Vol 7, No. 19, pp. 5-20



¹ Associate Professor - Department of Arabic Language and Literature, Faculty of literature, Alzahra University, Tehran, Iran f.akbarizadeh@alzahra.ac.ir



Publisher: Faculty of Literature & Humanities, University of Kharazmi and Iranian Association of Arabic Language & Literature.



تحبيك الهوية المكانية في الرواية العراقية "ساعة بغداد"

فاطمة اکبریزاده^١

الملخص

دراسة الأماكن والموقع البيئي في المجتمعات البشرية لا تختص بالدراسات الطوبوغرافية أو الدراسات الجغرافية فحسب، بل يمكن أن ندرس المكان من الناحية الثقافية والفكيرية من منطلق الدراسات الأدبية في النقد الأدبي. الرواية كأثر أدبي اجتماعي، تسرد الأحداث وربما من منطلق بول ريكور وهابدين وايت تقوم بتحبيك أو صياغة الحكمة من الواقع المتناثرة إلى حكاية منسجمة. إذ تحبيك الأمكانة والأحداث المتعلقة بها، ترسم معلمها الحية، إذ تعلو صوتها بجانب الشخصيات لتتمثل الحياة في تنوعها كلها كوسيلة لتعزيز وإثراء الحياة وكتوثيفية غيرتارخية. أما رواية ساعة بغداد لشهيد الرواي -من أشهر الروايات العراقية المعاصرة- فتسرد حالات المجتمع العراقي في أجواء الحرب وتذكر على بغداد وأماكنها المختلفة كثورة الأحداث جعلتها حكمة روائية وترسم خلاها الصورة الفكرية والحضارية والثقافية كهوية أبناء الوطن. هذا المقال يهدف إلى دراسة المعلم الدلالي للمكان في رواية ساعة بغداد بالمنهج الوصفي- التحليلي، وتوصل إلى أن الرواية تحاول تحبيك التاريخ بربط الواقع والخيال لترسم هوية المجتمع العراقي خاصة في بغداد عبر الزمن من الماضي إلى المستقبل، وتحكي العالم الحضارية والثقافية عن المكان حسب التجربة المعاشرة، إذ لا تفصل هوية المكان عن هوية الفرد. تستعرض الرواية بغداد كمجال تحبيكي ينبع بالحياة، حيث تتحول الأمكانة إلى رموز دالة على الذكرة الجماعية، والاتصال لبناء الشخصيات وتكوين الوعي الجماعي. يُظهر البحث أن الرواية تمزج بين الواقع والتخيّل لتقديم صورة أدبية مقاومة تسرب عن بغداد وأماكنها، وتصوغ هويتها السردية من عمق الألم والحنين والأمل. فالمكان في الرواية، من المحلة إلى برج المأمون ومن بيت الحلة إلى حديقة الزوراء وساعة بغداد، يُعاد تشكيله من خلال الذكرة الشخصية للرواية، ليصبح وعاءً لحملات ثقافية وتاريخية وشعورية تعكس عمق التجربة الجماعية للأهالي.

الكلمات الدليلية: الهوية، الرواية، السردانية العربية، المكان، ساعة بغداد.

^١ الأستاذ المشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الزهراء، طهران ، إيران.

الناشر: جامعة الزوراء والجمعية الإيرانية لغة العربية وآدابها

١. المقدمة

الرواية نوع أديٍ يمتاز بخالق عن سائر الأجناس الأدبية، فهو سجل هوية المجتمع ومرآته. تشمل الرواية الأبعاد الحضارية والثقافية والفكرية لشعبها انتلاقاً من واقع حياتها إلى رويتها المستقبلية. كما أن الرواية فعالية اجتماعية، قد ظهرت لتمثيل الحياة في تنوّعها كل، وتتفتح على الحياة بمجملها وبنتفاصيلها ومفرداتها، وتسرد صراع الأنماط والآخر من أجل ثبات الهوية (رمادي، ٢٠١٤: ٥٠).

هناك علاقة وثيقة بين العالم التخييلي للرواية وعالم الواقع الذي يهتم بتسجيله التاريخي. فالمرادي يبين هذه العلاقة بقوله أن الرواية منتج أدبي اجتماعي والعلاقة بين الرواية والمجتمع تقوم على التغذية والتلقي، تغذية المجتمع للرواية وتلقيه لها، فانسان المجتمع وعلاقاته بما حوله وتفاعلاته مع من حوله المتع الذي يستفيد منه الروائي مادة روايته. إذ الرواية تشمل القضايا الإنسانية وتسجل الأهداف تسجيلاً دقيقاً وتعلها وثيقه غير تاريخية لا يرى فيها الإنسان الواقع بل يرى فيها حقيقة الواقع وجوهره (م.ن: ٤٨-٤٩). كما ناقش ايکو (١٩٩٤) هذه العلاقة ورأى أن كل عالم الخيال يتأسس بشكل طفيلي على عالم فعلي أو واقعي يتخذ منه العالم الخيالي خلفية، فهنا ندخل عالماً خيالياً تستدعيه قصة ونتخيل أنفسنا نتجول في شوارع مدينة أو هضاب بلدة يوضع فيها فعل السرد تصرف في هذا العالم وكأننا في عالم حقيقي، ويحدث ذلك حتى ونحن نعرف أنه مجرد خنزير سري لـ (بروكمير: ٢٠١٥: ٩٥).

هناك مسألة هامة عن المكان في القصة؛ هل يتعلّق بالواقع الخارجي (التاريخ) أم نتيجة التخييل الروائي؟ فللاجابة عنها يمكننا أن ننطلق من طبيعة التاريخ والرواية ومادتهما لكي نوضح العلاقة الوثيقة بينه وبين الرواية. ففي النظرية التقليدية للأدب وحسب فكرة واقعية التاريخ ما هو تسجيل للأحداث، ولواقعية التخييل الروائي، فتغير الرواية والتاريخ توعين مختلفين، فيتحكمان إلى قدرات عقلية مختلفة لا تتبع معاً، وهذا التمييز القديم يعود إلى شعرية أسطو التي ميز بين الشعر والتاريخ. أما هناك موقف آخر فيعتقد بأن الرواية والتاريخ يشتراكان في شكل السرد أولاً وفي العمق الزمني للتجربة البشرية ثانياً، وذلك من حيث أن التاريخ والرواية يسعian إلى توضيح التجربة البشرية من خلال وضعها في صيغة سردية بحيث تظهر الأحداث ضمن مسار زمني متزامن وذي دلالة وهو ما يسميه بول ريكور وهابين وایت بالتحريك أو صياغة الحركة أي مجموعة التسقيفات والتنتيبيات التي تحول من خلالها الأحداث المتباشرة والواقع المنتشرة إلى حكاية منسجمة وذات معنى (كاظام، ٢٠١٦ : ١٢٧-١٢٨)، والفكرة التي تكرس عليها بول ريكور وهابين وایت واحتفي بها التاريخيون الجدد وكتاب ما بعد الحداثة؛ فال تاريخ إنشاء نصي للماضي وهو إنشاء ذو طبيعة سردية وتخييلية (م.ن: ٧١)؛ إلا أن كلا من المؤرخ والروائي يوظف خياله في لحظة تشيد السرد التاريخي أو التخييلي، فالمؤرخ يرغب في التطابق مع الوثائق والروايات لا يرغب فيه (كاظام، ٢٠١٦ : ١٣٣). التاريخ والرواية يشتراكان في كونهما سرد الأحداث والروي. كلا المؤرخ والروائي يوظف القدرة التخييلية في تصوّر الأحداث وملء الفجوات في المعلومات. ومع ذلك، يلتزم المؤرخ بمنهجية صارمة تعتمد على الوثائق والأدلة التاريخية بحث تحقيق قدر أكبر من الموضوعية والمطابقة للواقع الماضي. بينما يتعمّن الروائي بحرية أكبر في استخدام الخيال لإنشاء عوالم وشخصيات وأحداث تخدم أهدافه الفنية، والعرفية والسردية، دون التقيد بالضرورة بالواقع التاريخي. ورغم هذا الاختلاف في المنهجية، يشتراكان في جوهر عملية السرد كأداة لتتنظيم وتقديم الأحداث والأفكار. وهناك الفرق بين التاريخ والماضي. فحسب نظرية شلينغ، الماضي يفترق عن التاريخ؛ فالتاريخ يصنع المعرفة بما صار، أمّا الماضي فهو صانع الذاكرة، ومنتهي ما تصنعت الذاكرة فإنّما تأخذ مسارها في تسييق الذات (أي تحكيم النسق في رويتها و في سلوكها) (عنامي، ٢٠١١: ١٩٨). الماضي هو كل شيء حدث وانتهى. أمّا التاريخ فهو الطريقة التي نفهم بها هذا الماضي ونكتب عنه. الماضي يصنع ذكرياتنا، وعندما تتشكل هذه الذكريات، فإنّما تؤثر على طريقة رويتها لأنفسنا وسلوكنا. فالمكان الروائي يرتبط بالواقع التاريخي السردي وبالماضي والذكريات.



الرواية تحبّيك للذاكرة التاريخية للشعب وهي تنسيق للذات والمجتمع، فتجدر دراستها لفهم واقع الحياة من منظور الروائي الذي تسرد الواقع. أمّا تحبّيك الهوية المكانية، فهو مفهوم يتعلّق بتشكيل وتطوير هوية مكان معين بناءً على مكوناته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والطبيعية. يهدف هذا المفهوم إلى تعزيز الاتّمام للمكان عبر ربط الناس بالمساحات التي يعيشون أو يتفاعلون فيها وذلك من خلال فهم الخصائص الفريدة للمكان ودمجها مع تجارب الأفراد وسلوكاتهم. وعما تتطوّر الرواية على مختلف العناصر من الشخصيات والبؤرة والحدث والزمان والمكان، إلا أنّ هذا الأخير يكون موضع اهتمام هذه الدراسة بما هي أكثر اتصالاً بالواقع والتاريخ. فتدرس رواية شهد الرواى للكاتبة العراقية بالمنهج التحليلي وتكتشف اللثام عن معالم هوية المجتمع البغدادي خلال تعايشه الحرب ومعاناتها ودمارها فالدراسة تجيب عن الأسئلة التالية بشأن رواية «ساعة بغداد» لـ«شهد الرواى»:

١. كيف تسرد بغداد وموقعها في العالم التخييلي للرواية؟
٢. ما معنى الهوية السردية في الرواية عبر تحبّيك المكان؟

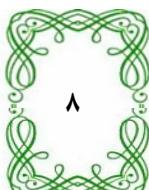
١. الدراسات السابقة

بما أنّ رواية «ساعة بغداد» تمتاز بلغتها وأسلوبها الرواية وموضوعها السردي، فهي نالت اهتمام الباحثين والدارسين؛ ومنها: المقال لسعده الله همايوني وحورا نباتي (٢٠٢٣) «رواية ساعة بغداد في ضوء الواقعية السحرية» يدرس السحر والخيال والأسطورة في النص لرسم أجواء الحرب والحصار. مقال لسميمه نيك فروردشیر صدرالدينى ومصطفى يگانه (٢٠٢٢) المعون «تحليل انتقادى گفتمان مهاجرت در رمان ساعة بغداد از شهد الرواى بر پایه نظریه نورمن فرکلاف» «تحليل الخطاب التقدي للهجرة في رواية ساعة بغداد لـ شهد الرواى في ضوء نظرية نورمن فركلاف» يدرس خطاب الرواية ويعتقد بأنّ خطاب الهجرة خطاب مفضل لل وكلاء السياسيين وحصلة إيجاهات السلطة. ومقال عبدالاحد غببى ومهين حاجى زاده وجمن آفازاده ووحيد خيرى (٢٠٢٢) المعون —«تحليل روانکاوانيه شخصیت اصلی رمان بر اساس نظریه ساحت‌های روانی ژاک لاکان» «التحليل النفسي للشخصية الرئيسة للرواية على أساس نظرية المستويات النفسانية لحاک لاکان»، يدرس خصائص الشخصية الرئيسة من منظور لاکان النفسي وظاهر انفرادها وكوكما شخصية كيبة ومنعزلة. ومقال لفلاح حسن عباس وثائر، فضل عيسى (٢٠٢١)، تحت عنوان «الاتجاهيات في رواية ساعة بغداد لـ شهد الرواى و خواب زمستان گلی ترقی (دراسة مقارنة)»، يدرس تشابه واختلاف وجوه الشخصية المثقفة بين الروايتين الفارسية والعربية من الناحية الدلالية. المقال لنور عادل محمد وسلمي بن جم عبدالله (٢٠١٩)، تحت عنوان «الشخصيات العجائبية في رواية ساعة بغداد لـ شهد الرواى»، يدرس العناصر الروائية للرواية وأثرها في تطوير وتوسيع الأحداث. دراسة ماجستير لفاطمة بالي ومسعودوه فرجانى (٢٠١٨-٢٠١٩)، تحت عنوان «معرفة الحوارية و مكونات الشخصية في رواية ساعة بغداد لـ شهد الرواى» من الجزائر، تدرس العناصر الروائية من الشخصيات، وال الحوارية، والتعدد اللغوية. هذا المقال ينطلق من المكان كنقطة الهوية الشعبية للدراسة السردانية وهو منظور بمحضه جديد.

٢. بعض مصطلحات النظرية

١. السرد والهوية

السرد عنصر أساسي للرواية وهو حبك الوعي الخاص للروائي بالذات والعالم وتمثيل للأفكار والمعتقدات وتصوير عن المجتمع والتاريخ. السرد عملية رواية الأحداث بطريقة تجعلها متسلسلة وذات معنى. يعتمد السرد على تتبع من الأحداث أو القصص التي تُروى، سواء



كانت فردية أو اجتماعية، بهدف توصيل رسالة أو التأثير. يمكن للسرد أن يكون وسيلة لفهم الماضي أو تفسير الحاضر، كما أنه يستخدم أحياناً لإلهم المستقبل. السرد يكون الهوية؛ يجمع ريكور عناصر الهوية المتنافرة والمتباينة في وحدة منسجمة وذات جبكة متراقبة أيضاً (كاظام، ٢٠١٦ : ١٣٣). تلعب السردية دوراً محورياً في بناء وتشكيل الهوية؛ من خلال القصص التي نرويها ونستمع إليها، فنكتسب فهماً عميقاً لأنفسنا وللآخرين.

بناء الهوية ليست ببناء مكملاً وجاهراً بل تخضع لتحولات التاريخ وسيرورة الثقافة. الهوية رهين بسردها الثقافي الخاص. تقوم السردية الثقافية بتشكيل الهوية من خلال اختيار الأحداث والشخصيات والأفكار من الماضي وتقديمها بطرق معينة غالباً ما يكون ذلك لد الواقع سياسية واجتماعية ورعاً اقتصادية. وفي هذه العملية، يتم تسليط الضوء على جوانب معينة وبجاهل أو تحير أخرى، مما يعطي المجتمع أو الفرد تصوراً معيناً عن هويته. فـ«مثلاً يحبك التاريخ فإن الهوية تكون عرضة للتغييب أيضاً» (م.ن: ١٣٠). للهوية وجهان ثابت ومتغير؛ ثوابت ثقافية يصعب تغييرها والتي تحافظ باستمراريتها عبر الأجيال ورموز ثقافية قابلة للتغيير. والسرد بما هو عملية بناء يعيد الانسجام للمترافق والمتشتت، يمكنه تشكيل الهوية و إبراز عناصرها (جوادي، ٢٠١٧ : ٨٨). وبالتالي، يمكننا القول إن السرد والهوية مرتبطة بشكلٍ عضوي، حيث يعمل السرد كوسيلة لتعزيز وإثراء الهوية، بينما تؤثر الهوية على اختيار وتفسير السردية التي نرحب في روايتها ومشاركتها.

٢. الهوية المكانية (الاغتراب/الانتماء)

الهوية عملية تمييز الفرد وتحدد أصلاته الشخصية ومكانته، فالمصطلح لا ينحصر في نطاق «الأن» الشخصية بل يتجاوز إلى صفات تخصّ الجماعة والسمات والميزات المشتركة لها. الهوية تعتبر مجالاً مهماً للنقد الثقافي، إذ ينطلق من واقع الهويات في العالم في تشكيلها ونمودها واندثارها ومقاومتها وانغلاقها وافتتاحها (المناصرة، ٢٠١٣ : ١٢). فحسب المكان، الهوية تتعرف بموضوع الانتماء والاتصال البيئي للشخص والمجتمع؛ أي أن المجتمع في ظرفه المكانية يكسب خصائص عادة. يرسم كل مجتمع إنساني لنفسه حدود فكرية ثقافية اجتماعية و... والمستويات والطبقات المختلفة. فالمجتمع يعيش في طقوسه ويتباها كالمهوية ومعارسها كالعتقد والثقافة.

«المكان» من العناصر التي لا يمكن فصله عن العمل الأدبي، لأن كل وصف للأحداث، وكل تطور في الجبكة ووصف الشخصيات والواقع، يحدث بالضرورة ضمن فضاء في النص السريدي. يشكل المكان الروائي ظروفاً للأحداث لكنه يتأثر منها ومن الشخصيات، كما يؤثر عليهما حسب الذاكرة التاريخية والشعبية. المكان ليس فقط إطاراً خارجياً للأحداث، بل هو أيضاً إطار للتفاعلات والمشاعر التي تتسع وتنشر كالهوية للشعب. وهناك أنواع للمكان حسب الدراسات السردية التي تحكي نوعية الأمكنة في النصوص، والتي لا يهتم بها هذا المقال، بل يهتم بدراسة المكان كالهوية التي تسرد في النصوص عبر الذاكرة والتاريخ.

وهنا لابد من توضيح المصطلحين الرئيسيين حسب الهوية المكانية وقضية الانتماء؛ وهما الغربة والاغتراب. الغربة (Estrangement) تعني الشعور بالإبعاد المكاني عن الوطن وبعد بسبب المسافة؛ والاغتراب (Alienation) يعني فقدان القيم والمثل الإنسانية؛ إذ يشعر الإنسان بالانفصال عن المجتمع وعارفه وعالمه؛ أي يستلب شيئاً ما ويحمله إلى شخص آخر (الصائغ، ٢٠١٣ : ٥٠٨). هناك مفاهيم وسميات عديدة للشخصية الاغترابية، فقسمها البعض إلى النمط السلبي والنمط الإيجابي الفعال. أما حليم برکات فيذكر ثلاثة أنماط الشخصية الاغترابية هي: ١. المنعزلون وهم المنسحبون السلبيون الذين يفضلون الابتعاد، وينجذبون المواجهة؛ ولم أساليبهم الخاصة في ذلك. ٢. المطيعون؛ الذين يميلون إلى طاعة ما ترضاه الجماعة بغض النظر عن غنائهم



الشخصية؟ فهم مجاملون منافقون ومنغلبون في خبراتهم واهتماماتهم ومصالحهم الشخصية. ٣. الفاعلون؛ من يواجهون الموقف الاغترابية بقصد العمل على تغيير هذه المواقف أو بالمعارضة أو يتوجهون القواعد أو حتى القوانين الاجتماعية، ويرفضون المعايير الثقافية المقبولة فيما يتعلق بالسلوك وال العلاقات الاجتماعية والممارسات العملية (م.ن: ٥١٦).

و الانتماء جذر الهوية الاجتماعية إذ يؤكد حضور مجموعة متكاملة من الأفكار والأعراف والتقاليد التي تتعلق بالأفراد وبجها وتحيا به(بعلكي والآخرون ، ٢٠١٣ : ١٥٤). الانتماءات المتكاملة المتعددة من العرقية والاجتماعية و... التي تخلق خلال الحضور بين أفراد تنسبهم إلى الطرف المكاني أو الزماني الخاص ومتمنهم مشاعر الأمان والاستقرار. الهوية المكانية ليست مجرد تفاعل مادي مع المكان، بل هي أيضاً تفاعل نفسي وثقافي، تنشأ خلال ارتباط الشخص بخصائص المكان المميزة وما يحمله من معانٍ وقيم.

٣. دراسة الرواية "ساعة بغداد"

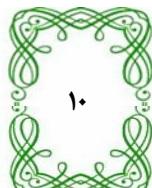
١. نبذة عن الرواية

الرواية صورة عن حي في بغداد وحكاية عن حياة الشخصية الرئيسة وصديقتها، وسرد أحوال أهل الحي عبر الذكرة من الماضي. الرواية تصف أحداث الحي بتوصيف دقيق خلال منظور البطلة التي تروي كل الواقع والأحساس والأحداث كالحزن والفرح والحب والدراسة والمحجرة والسفر والإرهاب والشعوذة والاتحرار. إنما تجسد حياة العراقيين ظل الحرب من الحرب الوطنية إلى الحرب الأمريكية، والحاصر والآلام والظلم والاستبداد والدمار والهلاك. قد وظفت الرواية تقنيات سردية لتسجيل الواقع التي تدور من داخل ملحاً مظلم من لسان الطفلة حتى تكبر وتزور إلى المدرسة ومن بعدها تلتتحق بالجامعة. وعن طريق خيال هذه الطفلة تدخل في المجتمع البغدادي وتتصف بغداد بكل أمكنتها من المسارح والحدائق والمتربّعات من جانب الشوارع المزدحمة والأبنية المهجورة والمدمرة والمتربّعة من جانب آخر. هناك جانب متتعش وهي نابع من الذكرة المكانية والعلاقات الحميمية بين أبناء المجتمع وهنّاك التشوّهات النفسية والأخلاقية والاجتماعية حسب آثار الحصار الأمريكي على المجتمع البغدادي. فتتغير الأمكانية في الرواية المادة الفاعلة لتكوين هوية الفرد والمجتمع.

٢. لهوية المكانية الوطنية

تسرد الرواية في ظرف بغداد المكاني خلال الرؤية الشخصية الرئيسة من طفوليتها إلى كبرها. وفي هذه الرواية تعتبر الحي البغدادي بؤرة الأحداث. والطفلة تعيّر عما حدث في جها فهي تحلم في الآفاق، وتحلق في عالم الخيال فوق بيوت بغداد القديمة للبحث عن الراحة، لتنخّص من الحرب؛ رغم أنّ صوت صنارة الإنذار وأصوات القصف الشديدة والانفجارات العنيفة قد تصرّها إلى الواقع، وتلنجأ إلى حضن أمها للطمأنينة في ظلام الملاجأ. إنما تحكم الخوف والبرد والتربّق واللهو واللعب والأحلام في ساعات الحرب، وتسرد العلاقات الحميمية بين العائلات والشخصيات الروائية. بغداد بلد حي بكل حيوية ونشاط، رائع بمناظره وطبيوته في السماء ونزارج عصافيره، وحدائقه وموقداته. الشوارع محل اللقاء الأشخاص بكل تنوعهم واختلافهم فلهذا هي فقرة الحياة الاجتماعية (زياد، ٢٠٠٣ : ٩١).

ترسم الطفلة ما تشاهد في الملاجأ وما تشاهده في الشوارع من البيوت في خطوط مستقيمة وكأنّ الحي سفينه كبيرة بمحدود لا يحده، وصغيرة في آن واحد. كذلك تصف الحي بعد انتهاء الحرب، وتسرد عن أحواله في اللعب في الشوارع واجتماع الأهالي مع البعض في حديقة الزوراء.





«الحديقة الزوراء» مكان نوستالجيا وظرف جدير للأحساس والملوحة والحب. هي مكان الاتصال والالتقاء، مكان الراحة والطمأنينة. يجلس الأهل على أعشابها ويتناولون الطعام ويستريحون بين الجواري بجانب حديقة الحيوانات. هذه ذكرة وفي نفس الوقت باب لنسopian الواقع المزير:

«بوابة الزوراء هي لحظة الدخول في النسيان هي المير العميق خوها أنفسنا بعيداً عن السياسة ... السياسة تأخذ الناس بعيداً تسرقهم من أنفسهم تخلط مشاعرهم مع الآخرين حتى لا يعود الإنسان يعرف نفسه. [...] إن وجود بوابة مثل بوابة الزوراء هو نوع من الأمل. هل تعرفون ماذا أقصد لكي أكون واضحة بدرجة كافية أقول لكم أن الحب يحتاج أمكنا رحيمة أيضاً، إنه يختنق عندما يمتليء الهواء بالشعارات.» (الراوي، ٢٠١٦: ٩٧)

هذا المتنزه هو مكان تجمع لأهالي الحي، وأيضاً مكان لقاء المحبين. يقدمونهم إلى هذا المتنزه، يجد الأهالي وكذلك الشخصيات الرئيسيات في الرواية قسطاً من الراحة المؤقتة والهرب من القلق والاضطرابات النفسية. هذه البيئة العريقة توحى السكون والحياة وتحصل الناس في أجواء بعيد عن الواقع المزير وتجعلهم ناسين الآلام والمصائب.

«برج الزوراء» وهي تعتبر من نظرة الطفلة أصغر من برج المأمون كأنها تحسب بأنَّ برج المأمون يكبر كل يوم (انظر: م.ن: ١٩) رغم كوكبها هي تكبر؛ ورغم تشير إلى عظمته عند الأهالي كأنَّ هذا المكان التاريخي رغم القدم يزداد كبرياًه وجبروته.

البيت مكان الألفة والأنس؛ وحسب تعبير باشلار هو الوجود الحقيقي للإنسانية الحالص التي تدافع عن نفسها (باشلار، ٢٠٠٠: ٦٦) وله أهمية بالغة في الآثار الأدبية. الإنسان غيره بيته كأنَّ حدود البيت حدود جسده. الروائيون يهتمون بالبيت ولا يصفونه فقط بل يعنون به ككيان البشر الفردي والاجتماعي والنفسي والثقافي الذي يتولد فيه ويكبر فيه (المستوى، ٢٠١٣: ١١٢). الرواية تسرد اضطرارها برثك بيتها إلى بيت جدتها في الريف، فتشعر بالراحة فيه، لأنَّها تتسمى إليه. تصف بيت جدتها في الريف والتي تسحب إليه قبل الحرب في كانون الثاني ١٩٩١ خوفاً من الحرب وهرباً منها بكونه آمناً من القصف والدمار، وهو مكان تخيط به الأشجار العالية وتجري بينها سواق، وفيها مناظر خلابة من العشب والشجر والحيوانات. وتقول:

«في بيت جدتي البعيد، كانت النجوم أقرب من النجوم التي فوق بيتنا، ذهبنا إلى هذا البيت، قبل أن تبدأ الحرب بثمانية أيام، كان ذلك أيضاً في كانون الثاني ١٩٩١. كنا نخاف من الحرب وقرر أبي أن نذهب عندها لنحتمي من الصواريخ لأنَّ جدتي لا تخاف من الحرب و الحرب لا تراها» (الراوي، ٢٠١٦: ٢٤-٢٣).

حدود البيت حدود الذكرة وحدود بيت الجدة حدود الوطن. الأمن والاستقرار، الحيوية والنشاط ينبع من البيت الذي يوحى الاتماء والثبات.

أما الملحق فهو نقيس البيت في أصالة، وهو يعبر مواصفات البيت إذ أنه يحتوي الأفراد في حالة الخوف والاضطرار والفرار من القصف والانفجار. إنه يوفر للخائفين الأمان والسكنية، لكنه غير قادر أن ينحتمم مشاعر الاتماء. يبقى الملحق مكاناً مؤقتاً، يفتقر إلى الدفء والروابط التي تعزز الإحساس بالاتماء والهوية.

الحي في تخيل الرواية تشبه سفينة عملاقة يتوسطها «برج المأمون» (م.ن: ٤٤) يقودها القبطان. هذا التصوير يجعل برج المأمون مركز المجتمع وعمادة كأنَّ الذكرة التاريخية قوامها. هكذا يشير إلى مرج الواقع بالخيال بقول القبطان الحكيم:





«العالم الذي نعيش فيه مجرد فكرة صنعها خيال مبدع خلاق وعندما وجدها فكرة معقدة راح يشرحها من خلال أفكار أخرى لكنها أفكار صغيرة [...] كأننا مسجونون في خيالنا وإن تجربتنا على عرض الواقع هي عبارة عن أفكار فقط، الوجود كله مجموعه من الأفكار». (م.ن: ٣٥)

يعيش الناس في السفينة، فترتبط مصائرهم بعضه البعض إذ لا يمكن أن تعتبر مصائر الفرد منفصلاً عن المجتمع. تقول: «بعض هذه السفن كبيرة بحجم القارة وبعضها بحجم وطن وأخرى بحجم محللة صغيرة. كلما كانت السفينة كبيرة فسدت العلاقة بين ركابها» (م.ن: ٧٤)، أي الألفة والتودد بين أعضاء المجتمع الصغير أكثر من المجتمعات الكبيرة التي لا يعرفون الناس بعضهم البعض بأكملهم. الناس راكبون على صفح السفينة فما يقاربهم واحدة، ولا يمكن أن يعني الفرد بمصيره شخصياً فقط. والأجني هو الذي يريد أن يفتأ حبل المجتمع ووحدته يسوق الناس صوب الفردانية والتفرد، والأناية والتفكير بأقدارهم الشخصية. هكذا يقول المشعوذ: «يعيش الإنسان في هذه الدنيا يقدرين، الأول قدره الشخصي والثاني قدره الاجتماعي، هل تفهم ماذا أقصد؟» (م.ن: ٧٥).

التعايش في مسار تكهنت المشعوذين يصير الأماكن مغلقة والشوارع تعبة. تصبح المحلة مكاناً لمرور المشعوذين لأن النساء في الشوارع مولعة بقراءة الطالع وبجالى الحظ، رغم كونهن متعلمات وصاحبات الشهادات في العلوم المختلفة. الرواية تعتبر المشعوذ كذاباً ودجالاً قادماً من الدول الأجنبية ليثبت الرعب في نفوس الشعب بما صمدوا أمام الحصار؛ ويؤثر في نفوس الناس فيما يقبلونه، لتحقيق تكهنته. هكذا تنهدم قوى الشعب فيفقد صموده؛ إذ يقول المشعوذ:

«أنتم الأرض الحرام لكل حرب، أنتم هدف سهل المنال لكل الأسلحة التي تقاطع فوق رؤوسكم» (الراوي ٢٠١٦: ١١٢).

فيظهر التعب على وجوه الآباء والأمهات؛ والنسيان يشمل الجميع. النسيان يعني الابتعاد عن الذاكرة والهوية؛ إذ لم يرغبو في أن يتذكروا شيئاً من الماضي ليعشوا بها، ويدخلون الحصار بعد تقلب الحياة رأساً على العقب. هنا يؤثر على الوجه الأنوثة كما يؤثر على الأنوثة، فأصبحت المدرسة بناءً ساحجاً بسبب تسلسل اليأس إلى أفرادها وأشخاصها. فالأنوثة تحسن بما يحسن الأشخاص في الظروف المختلفة للحياة من الحصار والهجرة والترك والغفار. إذ الشوارع لم تكن ممراً للتواصل والراحة والنشاط بعد، بل تصبح محل المسيرات الاحتجاجية والانتفادات والتظاهرات وإعتلاء اللافتات التنديدية (انظر: م.ن: ٩٢).

يهب الحي للمجتمع الهوية المتميزة. فكما يؤثر النسق الثقافي المضموم في ذاكرة الشعب من التاريخ والترااث على الشخصية؛ فيؤثر المكان على الشخصية إذ ينعكس على الذاكرة ليحيا. هناك أماكن تاريجية عدة في الرواية، لا تسرب ماهيتها التاريخية فقط وحكياتها عبر الذاكرة والماضي؛ بل تعطي صورة عن هويتها عند الشعب وهذه وثيقة شعبية خالدة؛ ومنها:

«ساعة بغداد» وهي من الأماكن التاريخية في بغداد ولها دلالات متعددة في النص. إنما عنوان الرواية وعنية النص دالة على الزمن والحقائق التاريخية من الماضي إلى الحاضر، والتفكير في المستقبل؛ كما تدل على بلاد الرافدين ومهد الحضارات والعروبة. وهي رمز للتاريخ الحافل بالبطولات والانتصارات والعلم والأدب (م.ن: ٧٨). تحكي الرواية هوية هذه الساعة عندما ترسم لنا مسيرة الشباب من المدرسة إلى هذه البناء الجديدة التي تسمى ساعة بغداد. وتحكي عن التجول في القاعات والحدائق والمتاحف بواجهتها الزجاجية وتحفها المقدمة إلى رئيس الجمهورية، والتي تحمل حكايات عن القدماء الذين عاشوا قبل آلاف السنين في العراق. ومن منظور الطفلة وحسب هيمنة الحاكم في ذلك الزمن؛ تعتبر صورة الرئيس الجمهوري أكبر من صورة هارون الرشيد (انظر: م.ن: ٣٠). تسرب الرواية عن حدقة ساعة بغداد وأحوالها المخضرة إذ يلاقي فيها الزمان والمكان، فيتدخلان في البعض.





ساعة بغداد تقع مركزاً للمسار أو المكان الانتقالي. المسار وفق تعريف هلسا مكان يربط مكاناً معيناً بأماكن أخرى (هلسا، ١٩٨٩: ٥٩). أحياناً تكون الأماكن الانتقالية في المدينة هي الشوارع والأزقة التي تربط بين نقاط مختلفة من المدينة، وفي الحى والملاذ تكون مرات وطرق الاتصال بينها تُعد أماكن انتقالية. وقد عبر شاكر النابليسي عن هذا النوع من الأماكن بأنها تشبه أوردة الجسم، التي تربط البيت والمدرسة وغيرها بساعة بغداد (١٩٩٤: ٥٧). ساعة بغداد خير مسار للحكاية حتى تسمح أن تظهر الأحساس في الصورة التذكارية الجماعية، فتحسّن الرواية مشاعر الساعة كانت تبتسم لهم أو تضحك عليهم (الراوي، ٢٠١٦: ٣٠). تعتبر الرواية بناءة الساعة في الليل أجمل منها في النهار وتتصف هذه البناءية بقولها: «عندما ندور حولها نستطيع أن نراها من كل مكان لأنها في الحقيقة ليست ساعة واحدة، أربع ساعات مربعة الشكل كل واحدة منها في جهد لا أدرى لماذا لا يسمونها (ساعات بغداد) ما داموا يضعون أمام كل واحدة مصباحاً كبيراً على الأرض» (م.ن: ٣١).

نظرة الساردة مختلفة عن النظرة التأرخية والأثرية في تصويف ساعة بغداد، فهي تختتم بحركة بندول الثوابي وسعادتها في الحركة والتقدير والتأنّر والتراجع، فترى نشاطها وحيوتها، رغم أنّ الناس لا يعنون بها (أنظر: م.ن: ٣٢). إنّ نموذج من الحياة والحركة. يدبر الناس في الحي شؤون حياتهم، حسب ما تعلّم الساعة من الوقت في طول النهار. بهذه النظرة مختلفة عن النظرة الأثرية إلى الأبنية التأرخية، فهي جزء من الحياة وجزء من الفعاليات اليومية. إنّ بناءة شاسحة شاهدة على الأحداث، وهي بثوانيها ودقائقها تخبر الشعب وظائفهم في أوقات الليل فتدّركهم بالحياة والحركة والنشاط.

ساعة بغداد تتنّج بين الزمان والمكان لتتفّق بجانب الشخصية في مختلف الأزمنة من حيّاتها وفي مكان يتعلّق بها ويتنّمى إليها. تصوّر الرواية معاناة قاطني الوطن فترسم ملامح غربتها واغترابها ومحاولات اجتنابها من جذورها ومقاومتها، فالساعة ليست جامدة بل هي كالإنسان صاحبة الشعور والاحساس، ولها دلالات متعددة عن الهوية الفردية والجماعية.

الرواية ترسم صورة المجتمع العريق طول مصيرته التي كانت ولا تزال مشدودة بالحرب والمحصار وتتصف البيوت المترفة والمهجورة في اهتمام أهل المحلة لحفظ هويتها؛ فتصف هجرة باجي نادرة بهذا القول:

«الناس لم ينسوها، لكنهم تعودوا على نسيانها لغيابها، وليس على نسيانها هي شخصياً. هناك ناس في محلتنا وحده في كل مكان في العالم، نسيانهم يعني أننا نتذكرة غيابهم، الذي يحل محل وجودهم في حياتنا» (م.ن: ٤٤).

هجرة الأهالي والعائلات من الحي بسبب القصف والمحصار وأزمانها وألامها تغيّر وجه المدينة. تتغيّر البنية الاجتماعية والنسيج الثقافي للمدينة، وفقد الأماكن بضمها المعناه الذي كان يبعث من وجود الناس وتفاعلهم اليومي. اليأس والغرابة يتسرّبان إلى نفوس الناس ومنها إلى الأبنية والأماكن، فلا تشعر العائلات بالراحة ولا تنتهيون في الغابات والقرى؛ إذ تعتبر المجرة الموت من نوع آخر، فتقول: «إنّه الموت من نوع آخر، تقول أمي أن يختفي أحد ما من حياتك، وليس لديك أمل في اللقاء به ثانية، وهذا يعني من وجهة نظرها إنّ أحدكم بالنسبة إلى الآخر قد مات» (الراوي، ٢٠١٦: ٩٨).

ورعاها هذا الموت يحيط بالأماكن ويستترها الحزن بأكثر عمق؛ والألم يشمل الجميع. فيتأمل الجيران لناظر البيوت الجميلة لخيالهم المغتربة، إذ تصبح غابات صغيرة من الدخان وترسب الغبار والسواد على هذه البيوت المهجورة.



«كُبرت محلتنا الفنية وأصبحت عجوزاً تفقد ذاكرتها تدريجياً، شيئاً فشيئاً أصبحت أبواب البيوت صدئة، وتلونت الشباليك بألوان قاحلة، ارتفعت الأسیجة الخارجية، والأسیجة التي تفصل بين الجيران، أضيفت الأقفال والكتائب الحديدية، صارت الحياة تنسحب إلى داخل الغرف البعيدة» (م.ن: ١٢٨).

الأماكن التي كانت تحمل التصص والأخلام بدأت تناكل، وأصبح كل ركن فيها يحمل بصمات الماضي الذي يرغب في استرجاعه. تعاني المحلة من فقدان الهوية، وكأنها تسير نحو النسيان، مفقودةً ذاكرتها التي كانت تعبر عن حياة شعرت بها الأجيال. نسيان الذاكرة هو فقدان الهوية. إذ تربط الذكريات ارتباطاً وثيقاً بالشعور بالانتفاء والمكان. عندما تذبل الذكريات أو تنسى، تبدأ الهوية في التلاشي، ويصبح الفرد أو الجماعة في حالة من الضياع وعدم الارتباط بالماضي. عدم الصمود والهجرة وترك الوطن يغير وجه البلد، فرغم استقرار الأبنية وحضورها على وجه أرض البلد، غبار النسيان يتربس عليها كأرضة تقضمها وتأكلها، فلا تترك شيئاً من قوامها. أما الرواى فتتكلم عن هذه الظواهر مقاومةً للنسيان، كما تسجل الشخصية الروائية خصائصها في كتابها.

٣.٣. الهوية الثقافية والاجتماعية

التنوع والتعدد الشفافي خصيصة المجتمع في بغداد. والطبقية الوسطى في المجتمع بؤرة الهوية الاجتماعية ونقطة ثقله. كلّ هذا التنوع والتعدد يؤدي إلى الألفة والمحبة والتعاون على فضاءات المحلة. والاختلاف في الدين والفكر والمذهب لا يكون عائقاً أمام الحياة.

«في يوم من الأيام، كان ذلك على الأغلب يوم جمعة من شهر نيسان، ذهبَتْ مع أهلي إلى حدائق الزوراء، كان معنا أهل نادية وبيداء وأمهما، ولا أذكر ما إذا كان أبوها معنا. جلسنا على العشب نتناول طعامنا الذي جلبناه من البيت» (الروي، ٢٠١٦، ٢٠١٩). هناك شخصيات اجتماعية مختلفة في الرواية من المدرّسات والمعلمات والمعلمات في ساحة العلم والثقافة. المعلم رمز للعلم وهو البناء الأولى للطبيقة المفقده. هذه الطبقة يضطررها فقر مدقع ويهربها الحرمان إلى ترك بيتها الغيبة والهجرة خارج العراق.

المكان يكسب الروح بسكنائه إذ أنّ وجود الأفراد وتفاعلهم مع بيئتهم يضفي الحياة والمعنى على المكان. يساهم السكان في تكوين هوية المكان من خلال عاداتهم، ثقافاتهم، وقصصهم الشخصية. فالحياة مملأة في المخي بسبب هجرة أغلب أهلها وبسبب الحرروب والحاصار ومقتل أبناء الوطن (عباس وزميله، ٢٠٢١: ٦٠٦). الشوارع تخلو من سكانها الأصليين القدماء غير بيت الرواية وبيت نادية وبيت عم شوكت.

«الجامعة» من الأماكن التي تتضخج فيها الهوية الاجتماعية للأفراد وتكتسب شكلاً جديداً. الرواية تدرس في الجامعة التكنولوجيا ونادية تدرس في جامعة بغداد، وهما تكتمان بصيرتهما الشعب، وتحاولان أن تسجلاً ذاكرة المحي تحت عنوان ساعة بغداد؛ رغم أنّ نادية هي الأخرى التي تماجر مع أهلها وتترك صداقتها والحي والذكريات والماضي. تشير الرواية بتهجين الأحداث الواقعية والخيالية وبالاعتماد على الذاكرة إلى أهمية الطبقة الوسطى ومدى تأثيرهم في عدم نسيان الذاكرة الشعبية؛ لأنّ صمودها ومقاومتها يحافظ على الهوية. تعتبر الطبقة الوسطى ذات أهمية كبيرة في المجتمع، حيث تلعب دوراً حيوياً في الحفاظ على الذاكرة الشعبية وتقاليدها بمحظ التراث الثقافي للمكان، بالمشاركة الاجتماعية لتفعيل الشعب، بالإبداع والابتكار في أساليب الحياة وإحياء الذاكرة، وتسمهم الطبقة الوسطى في منع نسيان الذاكرة الشعبية، مما يضمن استمرارية التراث الثقافي وتعزيزه عبر الأجيال.

كما أن الرواية تكشف عن تأثير الطبقة الوسطى والمنتفعين الفاعلين في مقاومة النسيان وحماية الذاكرة الشعبية من التناكل، مما يسهم في استمرارية الثقافة وتماسك الهوية الوطنية؛ وفي المقابل، ترصد أمراً من الشخصيات الاغترابية التي تتأرجح بين الانسحاب



والمواجهة، بين الطاعة والانفعال، مما يعكس أثر الظروف القاسية في تشكيل نماذج سلوكية غير مستقرة. ومع ذلك، يبقى الأمل قائماً من خلال صوت الرواية التي تخلق في عالم الخيال، وتحلم بمستقبل لا يُنسى فيه الماضي، بل يُعاد توظيفه ليمعن الحياة طاقة جديدة للانتماء والنهوض.

يمثل الاغتراب ظاهرة إنسانية وليدة ظروف قهيبة سياسية واجتماعية وفكريّة وأخلاقية تنشأ في فعل الفرد وسلوكه عندما يرى لا يواكبونه والحالة السيكولوجية التي تسيطر على الفرد يجعله غريباً عن واقعه الاجتماعي وكيانه الشفافي، إذ يفقد إحساسه بأهميته وقيمه ويجعله أن يفشل في علاقته الاجتماعية فلابد له من أن يقاوم أمام هذه السيطرة المادمة (الصاغر، ٢٠١٣، ٢٣٨). هذا الإحساس بالغيرة يمكن أن يتوج عن عوامل عدة، مثل الصبغوط النفسية، التغيرات الاجتماعية، أو حتى فقدان الهوية.

«إن هذا الحصار طويل ولن ينتهي قريباً، وعندما تأتي نهاية، ستبدأ الحرب وبعدها سيلاشى كل شيء في النسيان. سينكر الجار جاره، والصديق صديقه، والأخ أخيه، سترمى جثث الناس في الليل للكلاب، وستختنق الأرضية بالموت، ويدخل الرعب إلى بيوتكم من الشبابيك، أتتم الطبقة الوسطى التي عليها يبني المجتمع أركانه، ليس لديكم سلاح تدافعون به عن أنفسكم» (الراوي، ٢٠١٦: ١٢). استمرار الانفعال نتيجة الحرب والدمار، يجعل الإنسان شاهداً على هلاكه وهو لا يفعل شيئاً للخلاص منه. هكذا يغترب الفرد عن مكانه وقيم مجتمعه بسبب انعدام تفاعله عاطفياً وفكرياً مع تلك القيم، فيبرز الاغتراب الاجتماعي في أوضاع التمرد التي تدفع الأفراد إلى البحث عن بدائل للقيم التي يعتمد عليها البناء الاجتماعي لمجتمعهم (الصاغر، ٢٠١٣، ٥١٢). الاغتراب نتيجة الاحساس بعدم الفاعلية يبرز في المجتمع ويضعف الذاكرة الشعبية وينهك القوى للخروج من التيه والحياة.

قد تؤدي الظروف المؤسسية المجتمعية والاقتصادية وغيرها إلى ظهور نمط من أنماط الشخصية الجديدة بجانب الطبقة الوسطى والمثقفة الفاعلة في المجتمع. أكثر المجتمعات العربية يظهر فيها نمط المتراجع المتخفين (الذى يجمع في سلوكه ما بين النمطين الأول والثانى) (الشخصية الانعزالية -لطبيعة) يتراجع سلوكها بين الابتعاد وتجنب المواجهة، إلى المصاير والتجاهلة، وسلوك المواجهة في المواقف التي تحتاج إلى مواجهة وتغيير، ويفضلون عدم تحمل مسؤولية الانسحاب والابتعاد خوفاً وطمعاً (م.ن: ٥١٧). الرواية تشير إلى هذه الأنماط من الشخصيات التي لا تستطيع أن تتحمل الظروف القاسية الاجتماعية والاقتصادية فتفصل المجرأ والانزعال، كما درسنا مسبقاً، أو الانتحار والخذف والانسحاب؛ مثلما تسرد الرواية عنهم:

«رجل مسن يجر عربة حمل خشبية، رضى أن يفسح لها الطريق: ادعوني و خلصني من هذه الحياة، لا أريد بعد هذا اليوم أن أعيش في هذا الزمن المغير، أريد أن أموت» (الراوي، ٢٠١٦: ٢٢٤).

«شاهدت بنفسي امرأة تتخرّج وهي ترمي نفسها في نهر درجة من على الجسر كان ذلك في فصل الشتاء حيث مياه النهر الباردة، و يقول الناس الذين تجتمعوا من مكان الحادث إنها وأطفالها لم يذوقوا الطعام منذ ثلاثة أيام وإن زوجها مسجون لأنّه صار لصّاً» (م.ن: ١٤٠).

النظم المستبدة المسيطرة على الحياة تسهم بفعلها التعسفى في جعل الشخصيات بمزيد من الاحباط والتشرب والاستسلام في الفعل والمارسة التي يشعرون بالاجدواي والهامشية، فيختارون الرحيل والهجرة، كحلٍّ بديل لحالة الاضطهاد التي يعرضون لها. فيظهر الاغتراب نتيجة الظروف القهيبة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لا يتحمل بعض من أبناء المجتمع الظروف القاسية فيهاجون وبعض ينحررون والبعض يغتربون، لكن الرواية تزيد الانتعاش والحيوية بحفظ الذاكرة وعدم نسيان الماضي للحفاظ على الجذور الشعبي والانتماء الوطني.





بما أن الثقافة وليدة سلوكيات ونوعية تفكير لأبناء البلد، تمثل الثقافة مكوناً جوهرياً من مكونات المجتمع وتحسّد في الوقت نفسه جوهر وجوده وهويته؛ إذ إنها تشتمل على جملة السمات المميزة الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي يتصنّف بها المجتمع بجانب الفنون والأداب وطرائق الحياة وأساليب العيش معاً. وقد نرى أنّ المиграة والعودة تغيّر ملامح الشعب الثقافي فتشعر الراوية بسلوكيات لا تتّبع بما من قبل.

«حاولت أن أكون معه على طبيعتي، لكنّه عرف أن تفكيري مشغول عنه، فأخذ بيدي وذهبنا إلى متجره الزوراء، وفي الطريق كان يتحدث إلى من دون توقف وهو يصف لي رحلته إلى الأرجنتين» (م.ن: ١٢٠).

تعكس هذه العبارة توّرّ العلاقة بين الذات والآخر في ظلّ حالة داخلية من الشروط الذهني والانشغال النفسي. تحاول الرواية أن تُظهر التوازن العاطفي والتواصل الطبيعي، لكنها تعترض ضمّانياً بفشلها في ذلك، مما يشير إلى عمّق الاضطراب الداخلي الذي تعانيه وهو ما يمكن ربطه بتأكل الذاكرة الجماعية والحضار وال الحرب التي ترهق الوعي الجماعي والشخصي على حد سواء.

الذهاب إلى «متجره الزوراء» في هذا السياق ليس مجرّد نزهة عادّة، بل يحمل دلالة رمزية قوية؛ فهو مكان نوستالجي مرتبط بالراحة والحب والاتّمام كما ورد في الرواية. ومن ثمّ فإن انتقال الشخصيتين إليه يشكّل محاولة لإحياء مشاعر مفقودة، واسترجاع لحظة من السلام الداخلي وسط فوضى الحياة والمجتمع. وصف الرجل لرحلته إلى الأرجنتين يشكّل فعل هروب رمزي من الواقع المحلي إلى الفضاء الآخر، بما يحمله من احتمالات التحرّر أو الأمل، لكنه أيضًا يعكس التباعد العاطفي بينه وبين الرواية؛ فهو يتحدث بلا توقف، كأنّه يعالج صحته الداخلي بالكلمات، بينما هي غائبة ذهنياً، ما يُعيد إنشاج الاختلاف في العلاقة الإنسانية رغم القرب الجنسي. وبالتالي، فإنّ هذا المشهد يجمع بين البعد النفسي (القلق، الانشغال، الغربة الداخلية)، والبعد المكاني الرمزي (الزوراء كمساحة للسلام الهاّر)، مما يعزّز الطابع السريدي للهوية في الرواية بوصفها هوية قلقة، مشروطة بالزمان والمكان والذاكرة.

أما الجنوسة (Gender) فهي مقوله ثقافية تشكّل هوية المجتمع لتمثيل الأنثى عن الرجل بكلّهما موجودين مختلفين حسب كيانهما الثقافي. و«الجنوسة النسقية» تلامس النسقية الثقافية بعدها الطبقي الذي يجعل الفروق الطبيعية فروقاً في المستوى وفي التمييز المتّحiz، عبر هذه النسقية تتحول كل خاصية نسوية إلى سمة دونية حين مقارنتها بال مختلف عنها ذكورياً (الغذامي، ٢٠١٧: ٥). الرواية لا تشير إلى الانحيازات والهيادات أمام المرأة بشكل خاص، بل الحرب والفوضى والدمار قد جعلهم في موقف الاضطرار والمحاولة لحفظ الحياة. لكن ما تسرد الرواية عن العلاقات بين الصديقات أو الأصدقاء توحّي بأن هناك تابوهات لابد أن تلتزم بها الفتيات مثلما تشير إلى:

« بعيداً من مراقبة مروءة وملاحتتها وإزعاجها، صارت نادية تلتقي أحمد في الشوارع الخلفية البعيدة من الأنظار، في الاتجاه المعاكس للطريق الاعتيادي الذي كنا نسلكه يومياً من البيت وإليه» (الرواي، ٢٠١٦: ٦٧).

الأماكن البغدادية لا تزال تراعي النسق الثقافي المرسوم في ذاكرتها وتحافظ على الحدود كسمة ثقافية لها. المكان رغم الدمار وال الحرب مليء بالحياة والحب، والعشق يبرز على الأطلال بعيداً عن الأنظار. الحياة تتقدّم بعكس الموت في نسقها المعهود. عندما يخلو الحي من نظرة الغريب، يسود الأمن والهدوء، وتتجه المرأة أن تظهر ما تحبّ وتريد، وتستطيع التعبير عن مشاعرها بسهولة دون المخوف.





«نظرت بعينين خافتتين تتفحص المكان بعيّنٍ و يساري، عندما شاهدت برياد يتتجول في الشارع عالقاً ذيله الأبيض تأكّدت حينها أن شارعنا حال من الغرابة وضعت العباءة على رأسه و هذه أول مرة ارتدي فيها عباءة...» (الراوي، ٢٠١٦: ٢٠٤).

المكان بالنسبة للشخص الذي يشعر بالانتماء يمثل أكثر من مجرد مساحة جغرافية؛ إنه جزء من هويته وامتداد لشخصيته. هذا المكان يحمل خصائص مميزة يجعل الشخص يشعر بالراحة والأمان والانتماء العاطفي والروحي. تسمم خصائص هذا المكان بوجود روابط عميقة، مثل الذكريات المشتركة والمعلم المألوف والأشخاص الذين يكون لهم تأثير عاطفي خاص للمرأة التي لا تبوح عن هذه المشاعر بصراحة وسرعة. يجعل هذه الخصائص أن يشعر الشخص بأن هذا المكان يخصه ويفهمه ويخلق فيه رغبة للمساهمة في تطويره والحفاظ عليه. أما وجود الغربة فيذكر هذه المشاعر وبشكل تلك الروابط العميقة التي يجعل الشخص أن يشعر بالانتماء، عندما يشعر الفرد بالغربة في مكانٍ ما، قد يفقد إحساسه بالراحة والأمان وتصبح العلاقات مع المكان سطحية أو مؤقتة. تتلاشى معه الذكريات والتجارب المشتركة التي تعزز الشعور بالهوية، ويصبح المكان غريباً وغير مألوف، مما يضعف الرغبة في الارتباط به أو الحفاظ عليه. الشعور بالغربة يحجب الدفء العاطفي والانتماء، مما يجعل المكان يبدو فارغاً من المعنى، حتى وإن كان مليئاً بالتفاصيل الحسية والملحومة.

٤. النتائج

رواية ساعة بغداد تسرد أحد أحداث مجتمع محلة في بغداد بذاتها التاريخية وما جرى لهم من الأحداث ظل الحرب والمحصار والمجحة. السرد الروائي لا يكتفي بنقل الواقع، بل يعيد تشكيل الهوية من خلال استحضار الذاكرة الفردية والجماعية، وتوثيق الأثر العاطفي للمكان الذي لم يعد مجردخلفية للأحداث، بل أصبح فاعلاً مؤثراً في تشكيل الشعور بالانتماء والحنين. تتجلى أهمية المكان، من البيت إلى الجامعة ومن الحديقة إلى الملجأ بوصفه وعاءً لهوية الشعب ومرآة لتفاعلهم، ومسرحاً لصراعاتهم الداخلية والخارجية.

تحاول الرواية تحريك التاريخ بالمرجع بين الخيال وواقع التاريخ والأبنية الأثرية وسائر الأماكن في المجتمع وتضفي عليها هوية الشعب الوطنية والاجتماعية والثقافية والمعلم عن الجنوسة.

تقديم الرواية صورة تخيلية غيّة لبغداد وثيد بناء مواقعها لا كمساحات جامدة، بل كعناصر حية نابضة بالرموز والمشاعر والذكريات. المكان هنا لا يقدّم كخلفية محايدة، بل كقوية فاعلة تتأثر بالشخصيات وتأثر في مساراهم، مما يجعل من بغداد مدينة متخلية ومعاشة في آن، حيث تقطع الحرب بالحب، واليأس بالأمل، والانهيار بالحلم.

أما الهوية السردية في الرواية، فتتجلى من خلال تحريك المكان بوصفه مرآة للذات الجماعية ومجالاً للصراع والانتماء. إذ تُبني الهوية عبر التفاعل الحي بين الإنسان والمكان، فتصبح البيوت المتراكمة والمنجأ والحدائق والساحات العامة علامات سردية تدلّ على التحولات في الوعي والهوية. كما تبرز الرواية دور الطبقة الوسطى والثقافيين الفاعلين في مقاومة محو الذاكرة، مما يعزز استمرارية الهوية الشعبية. يوظف السرد الذاكرة والمكان ليشكل هوية سردية جماعية، تخلق عبر الخيال فوق أنقاض الحرب، حاملة في طياتها بنور البقاء والمقاومة والانتماء. المكان سجل هوية الشعب والوعي والبنية الفكرية والشعورية للشخصيات فيؤثر على الشخصية إذ ينكمأ على الذاكرة ليحيا ويصمد. تداخل الذاكرة الفردية بالذاكرة الشعبية، ويتحول السرد إلى وسيلة لبناء الهوية والمحافظة عليها في مواجهة النسيان والاغتراب والدمار.



المصادر

- باشلار جاستون (٢٠٠٠). جماليات المكان. ترجمة غالب هلسا. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- بروكمير، جينز و دونال كريبو(٢٠١٥). السرد و المحوية : دراسات في السيرة الذاتية و الذات و الشفافة. القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- بعلبكي ، الآخرون(٢٠١٣). المحوية و قضائها في الوعي العربي المعاصر. تحرير و تقديم رياض زكي قاسم. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- جوادي، هنية(٢٠١٧). «السرد و تشكيل المحوية "قراءة في رواية البحث عن العظام للطاهر جاودوت"». مجلة المخبر، ع، ١٣، صص ٨٥-١٠٦.
- الرواوي ، شهد (٢٠١٦). ساعة بغداد. لندن: دار الحكمة.
- ريكور، بول(٢٠٠٩). اللذكرة والتاريخ. ترجمة و تعليق جورج زيناتي. دار الكتاب الجديدة المتحدة.
- الرمادي ابو المعاطي خيري (٢٠١٤). «صراعات اثبات المحوية في الخطاب الروائي السعودي المعاصر صراعات المرأة الواقفة في البحريات نوادجا». مجلة جامع القيس المفتوحة للأبحاث والدراسات ، العدد ٣٣ ، صص ٤٣-٧٤.
- زايد، عبد الصمد (٢٠٠٣)، المكان في الرواية العربية (المكان في الرواية العربية الصورة و الدلالة)، تونس: دار محمدعلى، دراسات أدبية، منوية، ط ١.
- الصاغ، محمد ذنون زينو(٢٠١٣). «الاعتراض و مفاهيمه النفسية والاجتماعية». آداب الرافدين، ع ٦٨، صص ٥١٨-٥٠٧.
- عباس، فلاح حسن و ثائر، فضل عيسى(٢٠٢١). «الانتلجينيسيا في روايتي ساعة بغداد لشهد الرواوي و خواب زمستان گلي ترقى (دراسة مقارنة)». مجلة آداب الكوفة، ع ٤٩، صص ٥٩٣-٦١٠.
- الغذامي، عبد الله (٢٠١٧). الجنوسة النسقية أسلمة في الثقافة و النظرية. مغرب: المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء.
- كاظم نادر(٢٠١٦). المحوية والسرد دراسات في النظرية والنقد الشفافي. الكويت: دار الفراشة للنشر والتوزيع
- المستوني، مثنى عبدالله (٢٠١٣)، حرکية الفضاء في الشعر الأندلسی (نصوص ابن زيدون الشعرية أنوذجا). عمان: دار مجdalawi للنشر والتوزيع.
- المناصرة ، عز الدين (٢٠١٣). المحويات و التعددية اللغوية(قراءات في ضوء النقد الشفافي). عمان: الاسل للنشر و التوزيع.
- النابسي، شاكر (١٩٩٤)، جماليات المكان في الرواية العربية. الطبعة الاولى، بيروت: المؤسسة العربية.
- هلسا، غالب (١٩٨٩)، المكان في الرواية العربية، ط ١، دمشق: دار ابن هانى.

References

- 'Abbās, F. H., & Isā, F. ' . (2021). The intelligentsia in The Baghdad Clock by Shahad al-Rawī and Winter Sleep by Goli Taraghi: A comparative study. Majallat Ādāb al-Kūfa, (49), 593–610. [IN ARABIC]
- Al-Ghadhami, 'A. (2017). Systemic gender: Questions in culture and theory. Casablanca: Al-Markaz al-Thaqāfī al-'Arabī.[IN ARABIC]
- Al-Manāṣira, 'A. (2013). Identities and linguistic plurality: Readings in the light of cultural criticism. Amman: Al-Asal lil-Nashr wa-al-Tawzī'.[IN ARABIC]
- Al-Mastūnī, M. 'A. (2013). The dynamics of space in Andalusian poetry: The poetic works of Ibn Zaydun as a model. Amman: Dār Majdalawi lil-Nashr wa-al-Tawzī'.[IN ARABIC]
- Al-Nābulusī, Sh. (1994). The poetics of space in the Arabic novel (1st ed.). Beirut: Al-Mu'assasa al-'Arabiyya.[IN ARABIC]

- Al-Ramadi, A. M. K. (2014). Identity assertion conflicts in contemporary Saudi narrative discourse: The conflicts of expatriate women in Al-Bahriyyat as a model. *Majallat Jāmi'at al-Quds al-Maftūha lil-Abḥāth wa-al-Dirāsāt*, (33), 43–74.[IN ARABIC]
- Al-Rawi, S. (2016). *Sā'at Baghdād* [The Baghdad clock]. London: Dār al-Ḥikma.[IN ARABIC]
- Al-Ṣā'igh, M. D. Z. (2013). Alienation and its psychological and social concept]. *Ādāb al-Rāfidayn*, (68), 107–518.[IN ARABIC]
- Ba'labaki, R. Z. Q. (Ed.). (2013). Identity and its issues in contemporary Arab consciousness. Beirut: Markaz Dirāsāt al-Wahda al-'Arabiyya.[IN ARABIC]
- Bachelard, G. (2000). The poetics of space (G. Halsa, Trans.). Beirut: Al-Mu'assasa al-Jāmi'iyya lil-Dirāsāt wa-al-Nashr.[IN ARABIC]
- Brockmeier, J., & Carbaugh, D. (2015). Narrative and identity: Studies in autobiography, self, and culture. Cairo: Al-Markaz al-Qawmī lil-Tarjama.[IN ARABIC]
- Halsa, G. (1989). Place in the Arabic novel] (1st ed.). Damascus: Dār Ibn Hānī.[IN ARABIC]
- Jawadi, H. (2017). Narrative and the formation of identity: A reading in the novel Searching for Bones by Tahar Djaou. *Majallat al-Mukhabbar*, (13), 85–106.[IN ARABIC]
- Kāzim, N. (2016). Identity and narrative: Studies in theory and cultural criticism. Kuwait: Dār al-Farāsha lil-Nashr wa-al-Tawzī'.[IN ARABIC]
- Ricoeur, P. (2009). Memory, history, forgetting (G. Zinati, Trans. & Annot.). Beirut: Dār al-Kitāb al-Jadīda al-Muttaḥida.[IN ARABIC]
- Zayed, A. S. (2003). Place in the Arabic novel: Image and significance. Tunis: Dār Muhammad 'Alī, Manouba University.[IN ARABIC]

ژوئن کاہ علوم انسانی و مطالعات فرنگی
ریال جامع علوم انسانی

فصلنامه مطالعات روایت‌شناسی عربی

شاپا چاپی: ۲۶۷۶-۷۷۴۰ ۲۷۱۷-۰۱۷۹ شاپا الکترونیک:



۱۴۰۴/۰۲/۳۱

پیرنگ پردازی هوتیت مکانی در رمان عراقی «ساعت بغداد»

۱۴۰۴/۰۵/۰۹ تجربه ادبی

۱۴۰۴/۰۵/۱۰ تجربه ادبی

۱۴۰۴/۰۵/۱۱ تجربه ادبی

فاطمه اکبری زاده^۱

چکیده

مطالعه مکان‌ها و موقعیت‌های زیست‌محیطی در جوامع انسانی صرفاً به مطالعات جغرافیایی محدود نمی‌شود، بلکه می‌توان مکان را از منظر فرهنگی و فکری در چارچوب نقد ادبی نیز بررسی کرد. رمان به عنوان اثری ادبی-اجتماعی، روایت‌گر رخدادهایست و از منظر اندیشه‌مندانی مانند پل ریکور و هایدین وایت، این رخدادهای پراکنده را در قالب پیرنگی منسجم به داستانی پیوسته تبدیل می‌کند. در این فرایند، مکان‌ها و رویدادهای مرتبط با آن‌ها، در تجسم تنوع زندگی با زبانی زنده و گویا در کتابار خصیصت‌ها حضور می‌یابند و به عنوان اسنادی فراتاری‌بخی، در تقویت و غنای هوتیت نقش آفرینی می‌کنند. رمان ساعت بغداد نوشته شهد الراوی، از برجسته‌ترین رمان‌های معاصر عراق است که به بازنمایی وضعیت جامعه عراقی در فضای جنگ می‌پردازد و با تمرکز بر شهر بغداد و مکان‌های گوناگون آن به عنوان کانون رخدادها، این مکان‌ها را در قالب پیرنگی روایی ترسیم می‌کند. در بستر این روایت، تصویر فکری، فرهنگی و تمدنی شهر به عنوان نماد هوتیت مردم کشور نشان می‌پندد. این مقاله با رویکرد توصیفی-تحلیلی به بررسی دلالت‌های مکان در رمان ساعت بغداد می‌پردازد و نشان می‌دهد که رمان با پیوند میان واقعیت و خیال، می‌کوشد تاریخ را در قالب هوتیت روایی پیرنگ‌سازی کند و از این رهگذار، هوتیت جامعه عراقی، به‌ویژه بغداد، را در گذر زمان از گذشته تا آینده ترسیم نماید. در این اثر، مؤلفه‌های فکری، فرهنگی و تمدنی مکان بر پایه تجربه زیسته بازگو می‌شود، به‌گونه‌ای که هوتیت مکان از هوتیت فرد جاذی ناپذیر جلوه می‌کند. رمان، بغداد را به عنوان فضایی خیالی و زنده به تصویر می‌کشد، جایی که مکان‌ها به نمادهایی از حافظه جمعی، تعلق خاطر و زمینه‌ساز شکل‌گیری شخصیت‌ها و آگاهی جمعی تبدیل می‌شوند. یافته‌های پژوهش حاکی از آن است که نویسنده با ترکیب واقعیت و خیال، تصویری ادبی و مقاومتی از بغداد و مکان‌های آن ارائه می‌دهد و هوتیت روایی این شهر را از دل رنج، دلتگی و امید می‌سازد. مکان در این رمان، از محله‌ها گرفته تا برج مأمون، از خانه مادر بزرگ تا پارک الزورا و ساعت بغداد، از خلال حافظه شخصی راوی بازسازی می‌شود و دلالت فرهنگی، تاریخی و عاطفی دارد که ژرفای تجربه جمعی ساکنان آن را بازتاب می‌دهد.

کلیدواژگان: هوتیت، رمان، روایت‌شناسی عربی، مکان، ساعت بغداد.

^۱ دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشکده ادبیات دانشگاه الزهراء(س) تهران، ایران. f.akbarizadeh@alzahra.ac.ir



ناشر: دانشگاه خوارزمی با همکاری انجمن ایرانی زبان و ادبیات عربی

